نحن والأدب الغربي من خلال "رسائل النور"

وقفة مع المنهج

يقتضي الحوار وجود طرفين اثنين، يتبادلان الرأي، وغالبا ما يكون الرأي المتحاور فيه محل خلاف، إن لم يكن محل نزاع، فإن انتهى الأمر بين المتحاورين إلى توافق كان ذلك إيذانا بنهاية الحوار الذي يكون قد أدى ثمرته وآتى أكله. وقد ينتهي الحوار أحيانا إلى إفحام أحد الخصمين صاحبه، دون أن يعني ذلك أن التوافق قد حصل. وفي القرآن الكريم صور من الحوار،ومن ذلك ما جاء عن صاحب الجنتين في سورة (الكهف). قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ۞ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً ۞ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ۞ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً ۞ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ۞ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ۞ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً ۞ فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ۞ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ

طَلَباً ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً ﴿﴾(الكهف:٣٢-٤٣)

فقد انتهى الحوار بين الرجلين وأحدهما مصر على كفره، سادر في غيه، فكان عاقبته ما حكاه لنا القرآن الكريم.

ومن صور الحوار القرآني أيضا ما حكاه القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام والملك الذي طغى وكفر،ثم ما كان من الذي استعظم البعث، ثم الحوار بين إبراهيم عليه السلام وربه تعالى، كل ذلك في آيات محكمة موجزة مبينة. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿﴾ (البقرة:٢٥٨-٢٦٠)

على أن الحوار قد يكون بين شخصين حقيقيين، كما رأينا، وقد يكون بين شخصين اعتباريين، أو معنويين، وهنا لا يكون الحوار بين الأشخاص، بل بين الأفكار، وذلك بأن يجرد المحاور شخصا معنويا، يتصوره خصما فيجري معه

الحوار، وذلك كالأسلوب الذي كثيرا ما اتبعه أسلافنا، حين يعرضون الفكرة وما يضادها، وكأنك ترى الخصم ماثلا أمامك، وكثيرا ما كان ذلك الأسلوب يتخذ صيغة: "فإن قلتم قلنا".

وهناك صورة أخرى للحوار ذات وجهين: الوجه الأول يكون فيه الحوار خارجيا، وهو الحوار الظاهر المعهود بين الناس، يستوي في ذلك أن يكون الخصم حقيقيا أو أن يكون معنويا. وأما الوجه الثاني فهو الحوار مع الذات، وهو الحوار الداخلي، ويتولد هذا الحوار الداخلي نتيجة لما يعانيه الإنسان في ذاته من تضارب في الأفكار، وتباين في المواقف، في فترة من الفترات، أو أثناء المرور بأزمة من الأزمات. وكثيرا ما سجل لنا المفكرون والفلاسفة والمتصوفة ألوانا من هذا الحوار، ولا سيما حين يكون هذا الحوار مصورا لفترة حاسمة من حيواهم، كفترة الانتقال من الشك إلى اليقين، أو الرحلة من الكفر إلى الإيمان. ومثل ذلك وجدناه عند الإمام الغزالي من القدماء، أو مصطفى محمود من المحدثين، ومثل ذلك أيضا وجدناه عند المهتدين الذين أسلموا من المستشرقين من أمثال محمد أسد "ليوبولد فايس"، وأتيين دينه،ورونيه كينون، والمنصور بالله الشافعي "فنسان مونتاي".

ونحن واجدون في سيرة بديع الزمان سعيد النورسي ألوانا من الحوار، ولاسيما حين نتتبع مراحل حياته الحافلة بالجهاد. ففي المرحلة الأولى من حياته كان هنالك حوار مع أشخاص حقيقيين، وعن طريق اللقاء العيني، وهي المرحلة الأولى من حياته، مرحلة الشباب، تلك التي كان يشعر فيها بنوع من الاعتداد الكبير بالنفس، حتى إنه وضع على بابه لافتة تقول: "هنا الإجابة عن كل سؤال، وحل لكل معضلة". وقد يكون هذا الحوار الحقيقي عن طريق الاتصال المباشر، عندما كان السائل يطرق باب بديع الزمان، فيسأله ويسمع منه، ويرجع بجواب لعله كان شافيا كافيا في معظم الأحيان، كما تنبئنا بذلك سيرته، وقد يكون

أحيانا عن طريق الأسئلة الكتابية التي كان يتلقاها بديع الزمان من بعض المتتبعين لسيرته، والمهتمين بفكره، فيجيب عها البديع جواباً شافياً،ومثال ذلك أسئلة القائد الياباني الذي وجه إلى علماء الإسلام بعض الأسئلة الدينية، فوجه علماء إستانبول هذه الأسئلة إلى بديع الزمان، فأجاب عنها.(١)

وقد يكون البديع هو المتقدم بالسؤال، ومن ذلك مراسلته إلى الفاتيكان، وقد تلقى البديع رسالة من الفاتيكان تقول:

الفاتيكان ٢٢شباط١٩٥١

مقام البابوية الرفيع

السكرير الخاص

رئاسة القلم الخاص رقم ٢٣٢٤٧

سيدي، تلقينا كتابكم المخطوط الجميل "ذو الفقار بوساطة وكالة مقام البابوية باستانبول، وتم تقديمه إلى حضرة البابا الذي رجانا أن نبلغكم سروره من هذه الالتفاتة الكريمة منكم، ودعواته من الله عز وجل أن يشملكم بلطفه وفضله، ونحن ننتهز هذه الفرصة لنبلغكم احتراماتنا.

التوقيع: رئاسة سكرتارية الفاتيكان(٢)

أما في المرحلة الثانية من حياة النورسي، فقد غلب على بديع الزمان محاورة الشخوص المعنوية، أو محاورة الأفكار، لا الأشخاص. وعلى هذا كانت مناقشات بديع الزمان لفكر بديع الزمان وأدبه، فيما سماه هو نفسه بسعيد القديم وسعيد الجديد، فقد شهدت شخصية بديع الزمان تطورا وتحولا في الفكر، حتى لكأننا أمام شخصين اثنين لا شخص واحد.

---

(١) سيرة ذاتية، ص٦٨.

(٢) سيرة ذاتية، ص٤٣٩.

وتلك المناقشات التي كان يسوقها البديع في إطار الحوار بين السعيدين القديم والجديد تنبئ أننا أمام شخصية فذة واسعة الاطلاع على الفكر والأدب الغربيين، إذ الغرب الغالب هو المحاوِر والمحاوَر بالدرجة الأولى، ويدلنا على ذلك الاطلاع الواسع كثرة الاستشهاد بما عند الغرب من فكر وأدب، وحضارة ومدنية، وكثرة دوران أسماء الغربيين على لسانه. ومن أكثر الأسماء دورانا في الرسائل، أفلاطون وأرسطو من الأقدمين، وكارلايل وكوته وشكسبير وديكارت من المتأخرين. ولم يكن رد النورسي على الغرب بمانع له على أن يستفيد من بعض ما أنتجته قرائحهم، بعد أن يقوم بتشذيبه وتهذيبه، ويخضعه لمصفاة الشريعة.

ومن أجل تبين موقف النورسي الأدبي ينبغي استحضار أمور منها:

١. أن النورسي لم يكن كَلا على الأدب، بل كان أديبا ومتذوقا للأدب، ورسائل النور كافة، والمثنوي العربي النوري بخاصة، ناطقة بذلك شاهدة عليه.وحسبنا شهادة شاعر تركيا الكبير محمد عاكف رحمه الله، في أستاذه بديع الزمان، حيث يقول: "إن شكسبير وهيجو وأضرابهما لا يبلغان إلا مرتبة تلميذ بديع الزمان في الأدب والفلسفة".[(١)]

٢. إن واقع الأدب في العالم الإسلامي، من طنجة إلى جاكرتا، كان في زمن النورسي يعيش حالة من الانسلاخ عن الذات، إما عن طريق اجترار القديم اجترارا مسفّا، دون وعي أو روح، وإما بسبيل التقليد الأعمى للغرب وأدبه، باسم التجديد، فكان الاغتراب والاستلاب والاضطراب، وعندنا في العالم العربي شواهد ناطقة، وهل كانت مدرسة أبولو، ومدرسة المهجر، ومدرسة الديوان، في معظمها، إلا عنوانا لذلك الاستلاب والاغتراب والاضطراب؟ لقد حدث

(١) بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره بقلم الأستاذ إحسان قاسم الصالحي،١٩٤.

نوع من الانبهار بما عند الغرب، فتغيرت بعض الأشكال الأدبية، إلا أنها حملت معها من معاني الانحراف الفكري والعقدي شيئا كثيرا، ولك أن تقرأ -إن شئت- طلاسم أبي ماضي لتتأكد من ذلك.إن الزخرف الفني الذي تزخر به هذه القصيدة ينطوي على فلسفية عدمية صارخة.

٣. لم تكن الصورة قاتمة تماما، بل كانت هنالك أصوات تدعو إلى التجديد الأصيل، إن صح التعبير، يستمد مقوماته من ثوابت الأمة، مع استيعاب جلي للحضارة الغربية، ولن يستطيع أحد أن يشكك في النورسي ولا في محمد إقبال، وهما من أشد الناس اطلاعا على ثقافة الغرب وحضارته وميراثه الفكري والأدبي، ولقد كان محمد إقبال يردد أنه خبر الحضارة الغربية ثم خرج من تنورها كما خرج إبراهيم عليه السلام من نار النمرود. والمشابه بين النورسي ومحمد إقبال كثيرة جدا، مما نبينه في بحث آخر إن شاء الله.

وتفتح لنا سيرة النورسي الباب واسعا من أجل فهم موقفه من الأدب الغربي بخاصة، والمدنية الغربية بعامة، فهي سيرة تسعفنا في استخلاص منهج واضح تتحدد معالمه فيما يلي:

١. تكوين الذات

قبل الاطلاع على بضاعة الآخرين لابد من التزود الكافي من مقومات الذات. ولأن البحر عميق، والعقبة كؤود، كان لابد من الاطلاع الواسع إلى حد الإحاطة قدر الإمكان. وقد بدأ النورسي منذ صباه بحفظ متون أمهات الكتب الإسلامية، وفي فترة من الفترات "كان يقضي معظم أوقاته عند ضريح الشيخ أحمد الخاني، الأديب الكردي الشهير" مطالعا الكتب، متزودا من علومها.[1]

(١) سيرة ذاتية، ص٤٧.

وهذا يفسر لنا بعضا من شخصية بديع الزمان الأدبية.

٢. التنوّر

وذلك عن طريق الاطلاع على العلوم الحديثة، وعلى رأسها علوم الغـــرب، قبل إصدار الحكم عليها، وذلك من باب الاحتراس، خشية الوقوع في الزلـــل، عملا يالقاعدة القرآنية الكريمة: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء:٣٦).

وهكذا طفق يطالع كتب العلوم الحديثة، حتى استحصل على أسسها، مـــن تاريخ وجغرافية ورياضيات وجيولوجيا وفيزياء وكيمياء وفلك وفلسفة وأمثالهـــا من العلوم، وذلك خلال مدة قصيرة جدا، وسبر أغوار هذه العلوم بنفـــسه دون معونة أحد، أو اللجوء إلى مدرس يدرسها إياه.[١]

وكما جاء في السيرة التي أعدها الأستاذ إحسان قاسم: "إن مؤلف رســـائل النور قد حدث له انقلاب مهم في حوالي سنة١٨٩٩م (١٣٢١هـــ)، إذ كـــان يهتم بالعلوم المتنوعة إلى هذا التاريخ لأجل استيعاب هذه العلوم **والتنور بها**. أما بعده فقد علم... أن أوربا تحيك مؤامرة خبيثة حول القرآن الكـــريم.. فثـــارت ثائرته واحتد وغضب.. وغير اهتمامه من جراء هذا الانقلاب الفكـــري فيـــه.. جاعلا جميع العلوم المتنوعة المخزونة في ذهنـــه مدارج للوصول إلى إدراك معاني القرآن الكريم وإثبات حقيقته. ولم يعرف بعد ذلك سوى القرآن هـــدفا لعلمـــه وغاية لحياته".[٢]

---

(١) سيرة ذاتية، ص٦٢.

(٢) سيرة ذاتية، ص٦٥.

٣. الفهم والتقويم

إن من شأن الاطلاع الواسع أن يعين على الفهم السليم، ويساعد على التقويم الموضوعي، إذا أوتي المرء موهبة وقدرة عقلية وصفاء قلبيا، مما يوفر سمة "الإنصاف" عند إصدار الأحكام.

ولقد كان النورسي رحمه الله تعالى، مطلعا على ثقافة الغرب قديمها وحديثها اطلاعا واسعاً وعميقا، وآتاه الله ﷻ قدرة على الفهم والتقويم، فنظر نظرة موضوعية إلى الغرب تصيب كبد الحق. وقد أعلن موقفه من الغرب في عدد من المواضع، في رسائل النور، ومن ذلك ما جاء في صيقل الإسلام حيث قال في تشبيه بليغ: "إن نهر العلوم الحديثة والثقافة الجديدة الجاري والآتي إلينا من الخارج كما هو الظاهر، ينبغي أن يكون أحد مجاريه قسما من أهل الشريعة، كي يتصفى من شوائب الحيل ورواسب الغش والخداع. لأن الأفكار التي نمت في مستنقع العطالة، وتنفست سموم الاستبداد، وانسحقت تحت وطأة الظلم، يحدث فيها هذا الماء الآسن العفن خلاف المقصود.

فلابد إذن من تصفيته بمصفاة الشريعة".[1]

٤. الموازنة بين الأدبين

لما أدرك النورسي حقيقة هذه الثقافة القادمة من الغرب، راح يبين للناس هذا الأمر، عن طريق الموازنة بين الأدب الغربي والأدب القرآني.

والحقيقة أن النورسي لم يكن ينتقد الأدب الغربي فقط، بل إنه كان ينتقد الآداب الشرقية أيضا، ومنها آداب الشعوب الإسلامية، تلك التي التفتت عن كنوز القرآن إلى قشور الكلام. وقد ضرب لذلك مثلا بما حدث للأدب العربي

(١) صيقل الإسلام، ص ٥٣٠.

حين انجذب الأعاجم بجاذبية سلطة العرب، ففسدت بالاختلاط ملكة الكلام المضري التي هي أساس بلاغة القرآن. ثم كان ما كان من انحراف عن روح الأدب الرفيع في العصور المتأخرة، كما تجلى في مقامات الحريري وما بعدها.

ولذلك كان لابد من العمل على أن يسترجع الأدب صفاءه ونقاءه، مستجيبا لنداء الفطرة.

لقد أصاب الآداب ما أصابها نتيجة انبهار كاذب بالمدنية الحديثة التي لم تستكمل شروطها التي تجعلها صالحة للاستخلاف الحضاري وذلك بسبب ما لحقها من زيف وتدجيل. وبلا خجل ولا حياء، وضع الأجنبي لسانا كاذبا في فم البشر.. وركّب عينا فاسقة في وجه الإنسان. وألبس الدنيا فستان راقصة ساقطة. فمن أين سيعرف هذا الأدب الحسن المجرد ؟

حتى لو أراد أن يري القارئ الشمس فإنه يذكره بممثلة شقراء حسناء. وهو في الظاهر يقول: "السفاهة عاقبتها وخيمة، لا تليق بالإنسان". ثم يبيّن نتائجها المضرة.. إلا أنه يصورها تصويرا مثيرا، إلى حد يسيل منه اللعاب، ويفلت منه زمام العقل، إذ يضرم في الشهوات، ويهيج النزوات.. حتى لا يعود الشعور ينقاد لشيء".(١) وقارن موقف النورسي عن السينما، منذ ما يزيد عن نصف قرن، بما قالته الممثلة المعتزلة نسرين، مجلة المجتمع.(٢)

إن مفهوم الأدب مرتبط بطبيعته ورسالته وأدبيته على السواء، فليس الشأن في ميادين الأدب وموضوعاته فحسب، إذ ميادين الأدب وموضوعاته وأغراضه قد تكون متشابهة، بل قد تكون واحدة، ولكن الشأن كله في الرؤية التي يصدر

---

(١) الملاحق، ملحق قسطموني، النورسي، ص ١٨٧-١٨٨.

(٢) العدد١٣٤١ ذو القعدة١٤١٩هـ - مارس١٩٩٩م.

عنها الأدب، وفي الأسلوب الذي يعبر به الأديب عن تلك الرؤيـــة. وإذا كـــان النورسي يميل إلى التعريف عن طريق السلب لا الإيجاب، وذلك بنفي عدد مـــن الصفات عن الأدب الغربي، فذلك يعني أن الأدب الحق هو الأدب الذي يشتمل على تلك الصفات ويتحقق بها. ثم إن الأدب الذي ينعى عليه بديع الزمان أسلوبه وطريقته هو ذلك الأدب الذي أطلق عليه الدكتور أحمد بـــسام ســـاعي أدب: "السامرية الجديدة"، فهو أدب يزعم الإصلاح، ولكنه باسم الواقعية، وباسم نقل الحقائق وتصويرها كما هي، يميل إلى تزيين الانحراف، ويحبب في السلوك المشين، فيكون لذلك الأسلوب فعل السحر في إثارة الغرائز البهيمية، وإضرام الشهوات، وإطلاق النـــزوات، فيكون في ذلك إشاعة للفاحشة وتزيين لها. وما ينتج عـــن ذلك كله هو الفرح الكاذب واللذة العابرة التي تورث الحزن، فيكون ظاهر ذلك الأدب التفاؤل والفرح، وباطنه التشاؤم والحزن المريض. وهكذا فإن "ما يورثـــه أدب الغرب هو حزنٌ مهموم، ناشئ عن فقدان الأحباب، وفقدان المالـــك. ولا يقدر على منح حزن رفيع سام.

إن استلهام الشعور من طبيعة صماء، وقوة عمياء، يملؤه بالآلام والهموم حتى يغدو العالم مليئا بالأحزان ، ويلقى الإنسان وسط أجانب وغرباء، دون أن يكون له حام ولا مالك، فيظل في مأتمه الدائم..

وهكذا تنطفئ أمامه الآمال.

فهذا الشعور المليء بالأحزان والآلام يهيمن على كيان الإنسان، فيسوقه إلى الضلال، وإلى الإلحاد، وإلى إنكار الخالق.. حـــتى يـــصعب عليـــه العـــودة إلى الصواب، بل قد لا يعود أصلا.

أما أدب القرآن الكريم: فإنه يمنح حزنا ساميا علويا، ذلك هو حزن العاشق،

لا حـــزن اليتيم.. هذا الحزن النابع من فراق الأحباب، لا من فقدانهم".[1]

وهكذا، فـــ"الأدبان كلاهما.. يعطيان شوقا وفرحا.

فالشوق الذي يعطيه ذلك الأدب الأجنبي، شوق يهيج الــنفس، ويبـــسط الهوس.. دون أن يمنح الروح شيئا من الفرح والسرور. بينما الشوق الذي يهبـــه القرآن الكريم شوق تهتز له جنبات الروح، فتعرج به إلى المعالي".[2]

وهكذا نخلص، مع بديع الزمان، إلى أن "آداب المدنية وبلاغتها مغلوبة أمـــام الأدب القرآني وبلاغته".[3]

ومن خلال تقريرات بديع الزمان، في الملاحق وفي الكلمات على الـــسواء، نخلص إلى أن علينا أن نلتمس رفعة آدابنا وقوتها وغلبتها بالاعتراف مـــن الأدب القرآني وبلاغته، لا بالتطفل على موائد غيرنا من الآداب. فذخيرة القرآن الأدبية لا تنفد، وقد كان سبب الارتكاس الأدبي عندنا معشر الشعوب الإسلامية، أننا لم نستفد الاستفادة المرجوة من القرآن الكريم، أدبيا، أليس القرآن الكريم أحسن القصص؟ فمالنا بقينا في غفلة عن بيانه وإعجازه قرونا؟ ومالنا لم نـــستفد مـــن براعته وبلاغته، فلم نطور فن القص عندنا؟ ولو فعلنا وأحسنا الإصغاء، لما كنا عالة على الغرب، ننتظر أن تظهر عنده القصة والرواية ثم نسعى جاهدين إلى استنباتها في أرضنا الأدبية، كأننا لم نقرأ يوما كتاب الله تعالى، و لم نستجل كنوزه:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

إن حديث بديع الزمان الأدبي يكشف لنا عن أمور، منها هـــذا الأســـلوب

---

(١) ملحق قسطموني، ص ١٨٩.

(٢) ملحق قسطموني، ص١٩٠.

(٣) الكلمات، ص ٤٧٦-٤٧٧.

البديع الذي يعتمد التمثيل في تقريب الحقائق. فأدب المدنية الحديثة كبكاء اليتيم الذي فقد أبويه، فحزنه مرير قاتم مدمر. وأدب القرآن كإنشاد العاشق العفيف، حزنه قصير الأمد شفاف، وغناؤه ملؤه الشوق والأمل.

والأدب والبلاغة، من حيث تأثير الأسلوب، إما يورثان الحزن وإما الفـــرح. وهذا ما سماه القدماء من نقادنا وفلاسفتنا حالتي القبض والبسط.

والحزن قسمان: حزن مظلم كئيب مرده الضلالة، وناشئ عن فقدان الأحبة، وحزن سام متعال، ناشئ عن فراق الأحبة ولوعة الاشتياق. وهذا الحـــزن هـــو الذي يورثه القرآن الهادي المنير.

فإذا نحن نظرنا إلى الحزن الذي يسود أدبنا المعاصر، وجدنا معظمـــه حـــزن المدنية المعاصرة، لا حزن القرآن الكريم، إنه حزن مـــدمر، مـــرتبط بالغربـــة في الوجود، وبالسأم العبثي.

والفرح أيضا قسمان: الأول يدفع النفس إلى شهواتها، وهذا هو شأن آداب المدنية، من أدب مسرحي وسينمائي وروائي.

أما الثاني فهو فرح لطيف بريء نـــزيه، يكبح جماح النفس ويلجمها، ويحث الروح والقلب والعقل على المعالي، وعلى موطنهم الأصلي، على مقرهم الأبدي، وعلى أحبتهم الأخرويين. وهذا الفـــــرح هو الذي يمنحه القرآن المعجز البيان.

٥. التنوير

عند ذلك، وبعد كشف تلك الحقائق، ينطلق بديع الزمان مـــن التنـــور إلى التنوير، أي من الاطلاع على ما عند الغرب والاستفادة مما عسى أن يكون فيـــه من خير، إلى دعوة الغرب نفسه إلى التزود من آداب القرآن، لأنه أدب كوني لا تحدّه حدود، ولأنه أدب يعبر عن آدمية الإنسان، في الصورة المثلى. وهذا معـــنى

من المعاني التي تستنبط من إشارة الأستاذ إحسان قاسم إلى أن بديع الزمان صار جاعلا جميع العلوم الشرعية المخزونة في ذهنه مدارج للوصول إلى إدراك معاني القرآن الكريم وإثبات حقيقته.

ويسعى بديع الزمان سعي المؤمن المستيقن من نصر الله تعالى، وغلبة نوره، فهو يتحدث عن روسيا بعد الحرب العالمية الثانية قائلا:

"لن تبقى روسيا بلا دين، ولا تستطيع ذلك، ولا تعود إلى النصرانية. فلربما تصالح القرآن، أو تتبع ذلك الكتاب المبين الذي يقصم الكفر المطلق، ويستند إلى الحق والحقيقة، وإلى الحجة والدليل ويقنع العقل والقلب".[١]

فهل كان النورسي ينظر من وراء الغيب، بنور الله، إلى ما آل إليه أمر الاتحاد السوفياتي من تفكك وانحلال؟ و لم لا تكون دعوته الموسعة للناس جميعا واجدة طريقها إلى التحقق، أمام المتغيرات العظيمة التي يشهدها العالم؟ لقد انطلق النورسي بعد ذلك إلى الدعوة إلى أدب كوني، أدب يتحرر من الإذعان للخلق، بدعوى الالتزام، إلى أدب يتجلل بالإذعان للخالق وحده، فيتحرر البشر من كل ألوان العبودية ويدخلون في انسجام تام مع الوجود، ويتوجه بديع الزمان إلى الإنسان قائلا:

"دع الصراخ يا مسكين، وتوكل على الله في بلواك

إنما الشكوى بلاء

دع الشكوى، واغنم الشكر كالبلابل، فالأزهار تبتسم من بهجة عاشقها البلبل".[٢]

---

(١) الملاحق، ملحق أميرداغ٢، ص ٣٤٨.

(٢) سيرة ذاتية، ص٢٢٤.

هاهو بديع الزمان، مثل محمد إقبال، يريد للمسلم المجدد أن يكون كالبلبل، لا يتعلق بغير مبدع الوجود، ولا ينطلق إلى التجديد إلا بعدما يأخذ للأمر عدته.

وقد قال محمد إقبال: "إنني يائس من زعماء التجديد في الشرق، فقد حضروا في نادي الشرق بأكواب فارغة، وبضاعة مزجاة في العلم والفكر".[1]

وكم بين إقبال والنورسي من مشابه.

ولذلك حديث آخر، إن شاء الله تعالى.

---

(١) روائع إقبال، ترجمة الشيخ أبي الحسن الندوي، ص٧٦.